الباب التاسع

الحملة الصليبية السابعة

- لويس التاسع يغزو مصرا
- سقوط دمياط
- معركة المنصورة الثانية
- وقوع لويس التاسع في الأسر
- الظاهر بيبرس
- موقعة عين جالوت

obeikandl.com

الحملة الصليبية السابعة

سنة ٦٤٦ هـ - ٦٤٨ هـ - ١٢٤٨ م - ١٢٥٠ م.

قادة الحملة : ملك فرنس (لويس التاسع)

سبب الحملة :

الملك الفرنسي (لويس التاسع)

كان لاسترجاع **بيت المقدس** من أيدي **الصليبيين** ردٌّ فعل في أوروبا النصرانية تجلّى في الحملة الصليبية التي قام بها ملك فرنسا (لويس التاسع) فقد تجهز لحرب صليبية تجهيزاً عظيماً، واصطحب معه الكثير من الأمراء والأشراف بفرنسا.

وكان معه إخوته الثلاثة:

١ - روبرت دارتوا . ٢ - الفونس دو بواتييه . ٣ - شارل دانجو . كما كان معه المؤرخ الفرنسي لهذ الحملة (جوفرا دو سرجين) . وزوجته .

وكانت الفكرة السائدة في أوروبا منذ أواسط القرن الثاني عشر الميلادي: أن **مصر** ما دامت على قوتها وبأسها فلا سبيل إلى نجاح الحملات الصليبية واسترداد بيت المقدس من المسلمين؛ الذين نجحوا في استعادته من الصليبين مرة ثانية سنة (٦٤٢هـ= ١٢٤٤م) على يد الملك الصالح أيوب. إلا بشن حملة عليها، وتم التنسيق لذلك مع البابا أنوسنت الرابع والملك الفرنسي لويس التاسع، وشهد **مجمع ليون الديني** الدعوة لها سنة (٦٤٦هـ= ١٢٤٨م).

أبحر لويس من مارسيليا قاصداً الشرق ومعه زوجته وأخواه الثلاثة واتجهت الحملة إلى مصر مروراً بقبرص بجيش قوامه ٥٠ ألف مقاتل، ومنها تأخذ مسارها نحو بيت المقدس لاستردادها وهي هدف الحملة. وله يكن هدف تلك الحلمة إعادة الاستيلاء على بيت المقدس، أو ضرب مصر باعتبارها قاعدة حربية هامة فحسب، وإنما استهدفت أيضاً هدفاً بعيد المنال، يتمثل في تكوين حلف نصراني وثني بين الصليبين والمغول، يهدم الدولة الأيوبية في مصر والشام من ناحية، ويطوق العالم الإسلامي ويحيط به من الشرق والغرب من ناحية أخرى، أرسل البابا أنوسنت الرابع سفارتين إلى المغول لتحقيق هذا الغرض، غير أنهما لم يكللا بالنجاح .

شهدت مدينة ليون الفرنسية: مجمع ليون الكنسي سنة (٦٤٦هـ - ١٢٤٨م). والداعي إلى قيام حرب صليبية جديدة ضد المسلمين.

obeikandl.com

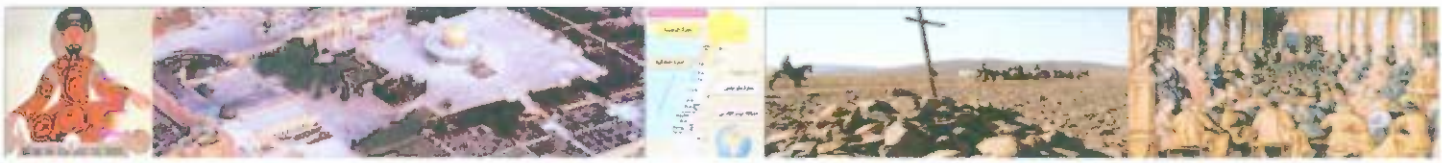

الصراع الأيوبي مع الحملة الصليبية السابعة على أرض مصر

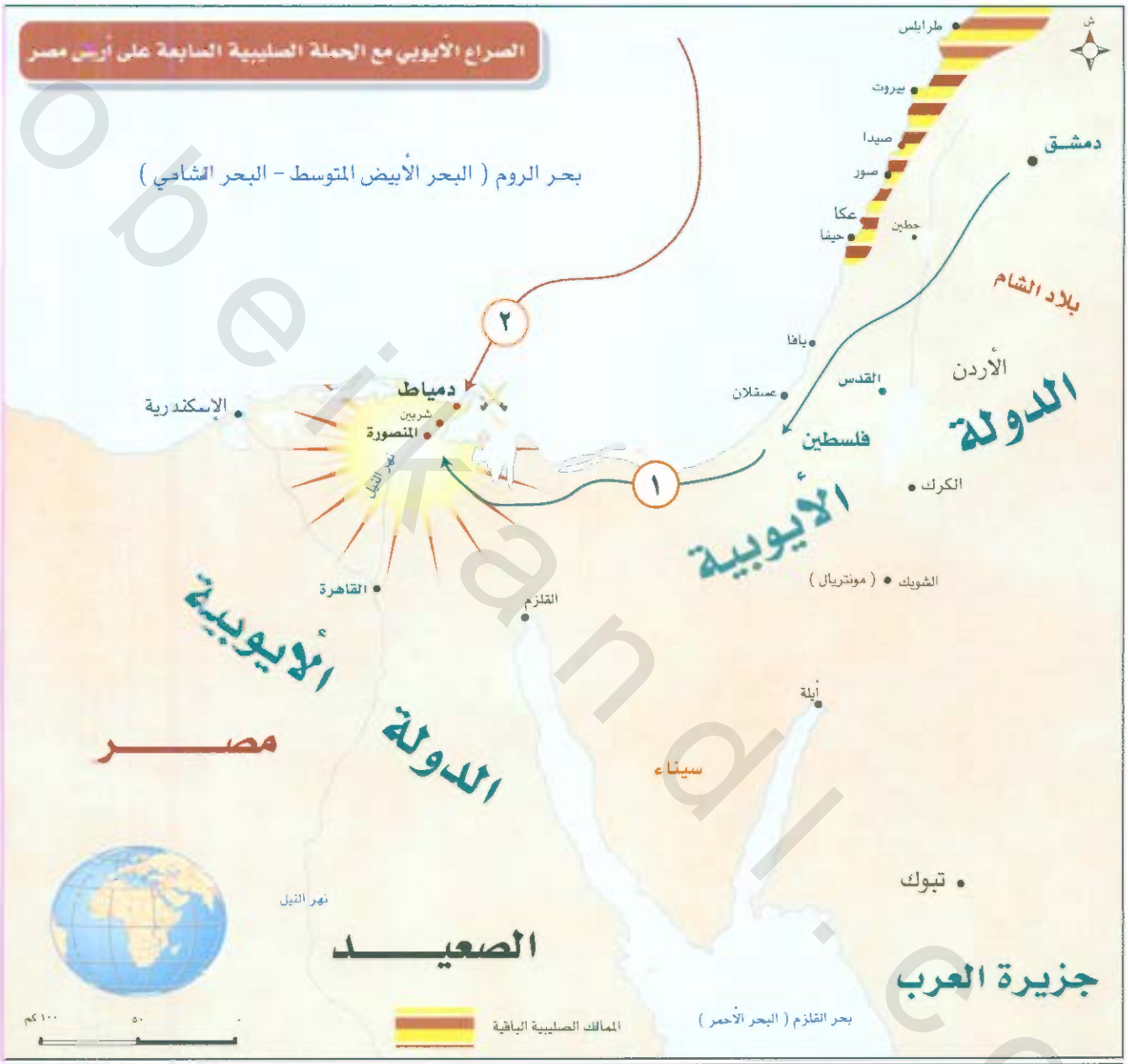

(١) علم الصالح أيوب بأنباء الحملة الصليبية السابعة وهو في بلاد الشام، وترامى إليه تجمع الحشود الصليبية في قبرص، واستعدادها لغزو مصر والاستيلاء عليها؛ فرجع إلى مصر على الرغم من مرضه، وبدأ في ترتيب أوضاعه العسكرية.

(٢) وصول الأسطول الصليبي إلى المياه المصرية أمام دمياط (٢٠ من صفر ٦٤٧هـ = من يونيو ١٢٤٩م) وفي اليوم التالي؛ نزل الصليبيون إلى البر الغربي للنيل، ووقعت بينهم وبين المسلمين مناوشات نسحب بعدها الأمير فخر الدين وقواته المكلفة بحماية المدينة إلى المعسكر السلطاني .

obeikandl.com

استقبل الملك الصالح أيوب؛ أنباء سقوط **دمياط** بمزيج من الحزن والأسى، فأمر بنقل عدد من الفرسان الهاربين، وأنّب الأمير فخر الدين على تهاونه وضعفه، واضطر إلى نقل معسكره إلى مدينة **المنصورة**. ورابطت السفن الحربية في النيل تجاه المدينة. **وتوافد على المدينة أفواج من المجاهدين الذين نزحوا من بلاد الشام والغرب الإسلامي.**

سفينتان مصريتان تمخران نهر النيل (فرع دمياط)

في الوقت الذي زحفت فيه الحملة الصليبية نحو القاهرة: توفي الملك الصالح أيوب في ليلة (النصف من شعبان سنة ٦٤٧هـ = ٢٢ من نوفمبر ١٢٤٩م) فقامت زوجته **شجرة الدر** بتدبير شئون الدولة بعد أن أخفت خبر موته؛ خوفاً من حدوث فتنة بين صفوف المسلمين. وفي الوقت نفسه أرسلت إلى توران شاه ابن زوجها وولي عهده تحثه على مغادرة حصن كيفا، بالقرب من حدود العراق، وعلى سرعة القدوم إلى مصر ليعتلي عرش البلاد خلفاً لأبيه.

تسربت أنباء وفاة الملك الصالح أيوب إلى الصليبيين فبدءوا في التحرك، وتركوا دمياط وزحفوا جنوباً على شاطئ النيل الشرقي لفرع دمياط، وسفنهم تسير حذاءهم في النيل، حتى وصلوا إلى بحر أو قناة أشموم المعروف اليوم باسم "البحر الصغير"، فصار على يمينهم فرع النيل، وأمامهم قناة أشموم التي تفصلهم عن معسكرات المسلمين القائمة عند مدينة المنصورة. وتعين على الصليبيين لمواصلة الزحف أن يعبروا فرع دمياط أو قناة أشموم فاختار لويس التاسع القناة، فعبرها بمساعدة بعض الخونة، ولم يشعر المسلمون إلا والصليبيون يقتحمون معسكرهم، فانتشر الذعر بين الجند المصريين، واقتحم الصليبيون بقيادة "روبرت أرتوا" أحد أبواب المنصورة، ونجحوا في دخول المدينة وأخذوا يقتلون المصريين بكل قسوة، حتى وصلت طلائعهم إلى سوق قصر السلطان نفسه، وانتشروا في أزقة المدينة، حيث أخذ الناس يرمونهم بالحجارة والطوب والسهام. وبينما هم على هذه الحال ضاعين أن النصر صار بين أيديهم حقيقة لا خيالاً واطمأنت نفوسهم إلى هذا النجاح والظفر، انقض المماليك البحرية بقيادة "بيبرس البندقداري" على الصليبيين وهم في نشوتهم وغرورهم وذلك في (٨ من ذي القعدة ٦٤٧هـ = ٨ من فبراير ١٢٥٠م)، فانقلب نصرهم إلى هزيمة، وأوسعهم المماليك قتلاً حتى أهلكوهم عن آخرهم تقريباً بما في ذلك الكونت أرتوا نفسه.

مخطط معركة المنصورة في الحملة الصليبية السابعة

في اليوم التالي لمعركة المنصورة، عقد الأمير فارس الدين أقطاي القائد العام للجيش الإسلامي مجلس الحرب، عرض فيه على ضباطه معطف الكونت أرتوا ظناً منه أنها سترة الملك، وأعلن أن مقتل الملك يتطلب مهاجمة الصليبيين على الفور، مبرراً ذلك بقوله: "إن شعباً بدون ملك جسم بلا رأس، لا يُخشى منه خطر، وعلى ذلك أعلن أنه سيهاجم الجيش الصليبي بلا تردد". وفي فجر يوم الجمعة (٨ من ذي القعدة ٦٤٧هـ = ١١ من فبراير ١٢٥٠م) بدأ الجيش المصري هجومه على معسكر الصليبيين، لكن الملك لويس تمكن من الثبات بعد أن تكبد خسائر فادحة، وبذلك انتهت معركة المنصورة الثانية. وهي المعركة التي أيقن الصليبيون بعدها أنهم لن يستطيعوا البقاء في مراكزهم، وأن عليهم الانسحاب إلى دمياط قبل فوات الأوان.

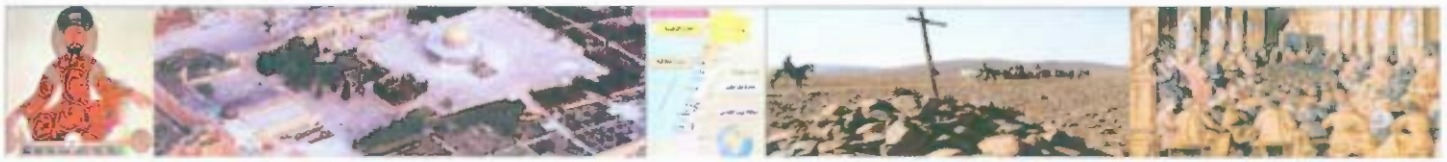

موقف الصليبيين بعد معركة المنصورة الثانية

استطاع المسلمون بقيادة الملك طوران (توران شاه) آخر ملوك الأيوبيين حصر الصليبيين الغزاة في مدينة المنصورة، فلقي كثير من الفرسان الصليبيين ممن لم يتسن لهم اللجوء إلى القلعة حتفهم، وبعد فترة اغرق المسلمون الأسطول الصليبي الراسي قرب المنصورة، وقطعوا اتصال الفرسان مع دمياط التي كانت قاعدة تموينهم، وتحت طائلة الموت جوعاً فر الصليبيون من المنصورة وفتكت بهم قوات المسلمين فزال جيشهم من الوجود كقوة مقاتلة، ووقع منهم الآلاف في الأسر، وكان ملك فرنسا (لويس التاسع) بين الأسرى، حيث أُسر في قرية منية أبي عبد الله (حالياً ميت الخولي عبد الله) بمحافظة دمياط وسرعان ما انتشرت الأمراض بين الأسرى كالملاريا والدزنطاريا والإسقربوط ، حتى إن الملك أخذت أسنانه تسقط وتعين حمله لقضاء حاجته، وفي مايو ١٢٥٠م، أخلي سبيل لويس مقابل فدية ضخمة ٨٠٠ ألف بيزنطي أو ٢٠٠ ألف ليرة شريطة أن يغادر الصليبيون دمياط، فوصلت بقاياهم إلى عكّا كيفما اتفق.

مدينة المنصورة

نهر النيل (فرع دمياط)

بقي لويس في عكّا أربع سنوات ، دعا فيها البارونات إلى حملة صليبية جديدة، ولكن الدوقات والكونتات والبارونات والفرسان تجاهلوا هذه الدعوة، فغادر لويس التاسع عكّا في إبريل ١٢٥٤ إلى فرنسا.

المماليك

ينقسم لمماليك إلى قسمين:

١- **المماليك البحرية** وهم الذين أسكنهم الملك الصالح الأيوبي قلعة في جزيرة الروضة ونسبوا إلى بحر النيل، أو سموا بذلك لأنهم قدموا من وراء البحار. هؤلاء حكموا مصر من سنة (٦٤٨-٧٨٤هـ/ ١٢٥٠-١٣٨٣م) وتداول عرش مصر في عهدهم أربعة وعشرون سلطاناً.

٢- **المماليك البرجية** أو الجراكسة. وسُمّوا بذلك لأن السلطان قلاوون أسكنهم أبراج قلعة الجبل، ولأن الجراكسة كانوا أكثر عدداً وهؤلاء حكموا مصر من سنة (٧٨٤-٩٢٣هـ/ ١٣٨٢-١٥١٧م) وهم ثلاثة وعشرون سلطاناً.

ويبدأ تاريخ المماليك، مع انتصار المماليك البحرية الذين بلوا بلاء حسناً في مقاومة تلك الحملة أن يقيموا دولتهم **على أنقاض دولة الأيوبيين في مصر**: فلم يكد يمضي شهر من تحقيق هذا النصر حتى تخلص المماليك من توران شاه، وأقاموا **شجرة الدر** سلطانة على مصر، وكان ذلك إيذاناً بزوغ عصر دولة سلاطين المماليك في مصر والشام.

ولم يأخذ المماليك بمبدأ وراثة العرش، وإنما كان الطريق مفتوحاً أمام من أبدى شجاعة وإقداماً ومقدرة. هذه هي المؤهلات في دولة المماليك التي قامت على أنقاض دولة الأيوبيين، وبعد مقتل توران شاه آخر سلاطين الأيوبيين بمصر.

* * *

خروج لويس من مصر إلى عكّا بعد إطلاق سراحه بفدية

دار ابن لقمان الذي سجن فيه لويس التاسع

عملة لويس التاسع - متحف اللوفر (فرنسا)

١ بعد انتصار الجيش الإسلامي المصري، على جيش الحملة الصليبية السابعة بقيادة لويس التاسع، أسر لويس واقتيد إلى شجرة الدر، فأمرت بسجنه في سجن المنصورة، فجعل لويس يفاوض على إطلاق سراحه، ويعرض لقاء ذلك مبالغ خيالية **تقدر بالملايين**. فوافقت أخيراً شجرة الدر بشرط أن يتم تسليم نصف المبلغ قبل إطلاق سراحه فأطلقته، وأقسم لشجرة الدر بعدم العودة إلى مصر مرة أخرى، ولكنه ما إن وصل عكّا، حتى نكث عهده وقسمه، وبدأ يجهز جيشاً صليبياً لاستعادة بيت المقدس.

٢ بقي لويس في عكّا أربع سنوات، دعا فيها البارونات إلى حملة صليبية، ولكن الدوقات والكونتات والبارونات والفرسان تجاهلوا هذه الدعوة، فغادر لويس التاسع عكّا في إبريل ١٢٥٤م إلى فرنسا.

الظاهر بيبرس بطل المرحلة القادمة ضد الصليبيين والمغول

ولد **بيبرس** عام ٦٢٠ هـ/ ١٢٢٣ م. وهو تركي الأصل، اشتراه الأمير أيدكين البندقداري، ثم باعه لسلطان الأيوبي الصالح نجم الدين أيوب (ت. ٦٤٧ هـ/ ١٢٤٩ م)، فتدرج في الحلقة، وترقى في سلك الجندية فأصبح من كبار أمراء المماليك الصالحية (نسبة إلى الصالح نجم الدين أيوب). ولما مات الملك الصالح، استمر بيبرس في خدمة ولده الملك المعظم توران شاه.

اشتهر بيبرس بمهارته العسكرية وببلائه الحسن في ساحات الوغى، وبخاصة في **معركة المنصورة**، عام ٦٤٨ هـ/ ١٢٥٠ م، التي هزم فيها الفرنج، وأسر قائدهم الملك الفرنسي لويس التاسع، (تقدم ذكرها). وبمقتل توران شاه عام ٦٤٨ هـ/ ١٢٥٠ م، تولت شجر الدر، زوج أبيه، مقاليد الحكم مكانه، فانتقلت السلطة في مصر، فعلياً، إلى **المماليك البحرية**. ثم أصبح المعز أيبك أول سلاطين الدولة الفتية بزواجه من شجر الدر التي تنازلت له عن العرش **بسبب احتجاج الخليفة على تولي امرأة تدبير شؤون المسلمين**. وبعد مقتل المعز عام ٦٥٥ هـ/ ١٢٥٧ م، بتدبير من شجر الدر، خلفه ابنه نور الدين علي، ثم المظفر قطز، فالظاهر بيبرس بعد أن وطأ سيده المظفر غداة معركة **عين جالوت** عام ٦٥٨ هـ/ ١٢٦٠ م.

يعود الفضل لله سبحانه وتعالى ثم للظاهر بيبرس في ترسيخ دعائم دولة المماليك البحرية وتنظيم شؤونها الداخلية، وإضفاء الشرعية الدينية عليها بإحيائه الخلافة العباسية في القاهرة عام ٦٥٩ هـ/ ١٢٦١ م بعد أن دك المغول مركز الخلافة الإسلامية في بغداد، وقتلوا الخليفة المستعصم عام ٦٥٦ هـ/ ١٢٥٨ م. **ثم ما لبث بيبرس أن بسط سيادته على المدن المقدسة في الحجاز، مما جعل سلاطين المماليك، من بيبرس فصاعداً، يظهرون أمام العالم الإسلامي، المعروف آنذاك، حماة للخلافة ولأشخاص الخلفاء، والمؤتمنين على مقدسات المسلمين.** وفي الخارج، فرض السلطان بيبرس هيبة الدولة على أعدائه بكسر **شوكة المغول**، بعد تسع مواجهات ضارية معهم، بين عامي ٦٧٠-٦٧٥ هـ و ١٢٧١-١٢٧٦ م كان آخرها المعركة التي جرت في عقر دارهم، حيث ألحق بهم الهزيمة في سهل هوفي في صحراء البلستين (آسيا الصغرى). و**نجح السلطان في زعزعة بنيان الكيانات الصليبية**، بعد إحدى وعشرين حملة عسكرية عليهم، أدت إلى سقوط **إمارة أنطاكية** في يده واستيلائه تباعاً على القلاع والحصون الاستراتيجية المحيطة **بكونتية طرابلس ومملكة عكا**. كما قام بيبرس بخمس حملات على بلاد الأرمن في آسيا الصغرى وأخضعها لسيادته.

وإلى جانب منجزاته العسكرية الهامة، خط الظاهر بيبرس لدولته سياسة خارجية لافتة للانتباه تمثلت في إحاطة حروبه بسياج من المعاهدات والاتفاقيات الدولية لاكتساب الأعوان والحلفاء من جهة، والاستفراد بالأعداء من جهة أخرى. ومن ذلك: سعيه الحثيث للتحالف مع الإمبراطورية البيزنطية العدو التقليدي للاتين، وحرصه

obeikandl.com

على الاحتفاظ بسياسة الود مع الجنوية ومع كل من شارل دانجو ملك صقلية وملك إشبيلية، وكانت له صلات حسنة مع عز الدين كيكاووس سلطان **سلاجقة الروم**، كما حالف بركة خان زعيم مغول لقبجاق، وذلك لمواجهة عدوهما المشترك المتمثل بإيلخانات فارس من هولاكو وأولاده.

ومما زاد في شهرة بيبرس إشادة المصادر الإسلامية بخصاله، وشمائله، وشجاعته، وبمنجزاته في مجال العمارة الدينية وأوقافه المنتشرة في أرجاء سلطنته المترامية الأطراف، واهتم بسك العملة لبسط الهيمنة السياسية الاقتصادية على أرجاء العالم الإسلامي آنذاك (انظر نماذج لبعض عملاته النقدية)، الأمر الذي جعل للسلطان منزلة خاصة في مختلف الأوساط العربية والإسلامية على امتداد العصور، فاكتسبت صورته في ذاكرتهم الجماعية طابعاً عظيماً جعلته في مصاف أبطالهم الملهمين، مثل صحابة رسول الله صلى الله عليه وسلم، وكبار التابعين، وشرف الدولة مودود، وعماد الدين زنكي وابنه محمود، والناصر صلاح الدين، والمنصور قلاوون، وشيخ الإسلام ابن تيمية، وابن القيم الجوزية، ومحمد بن عبد الوهاب، وأحمد ياسين، والرنتيسي ... .

توفي الظاهر **بيبرس** يوم الخميس ٢٧ محرم من عام ٦٧٦ هجرية - ٢ مايو ١٢٧٧ ميلادية بعد أن أرسى اسمه ضمن قائمة أبرز سلاطين العصر المملوكي. وكان له عدة أولاد، منهم كمال الدين بيبرس الذي كان قائداً حربياً، وقد شارك والده في العديد من المعارك واستقر في ما بعد في بيت المقدس، ويعود له أصل عائلة كمال الموجودة حتى يومنا هذا في بيت المقدس من أرض فلسطين الحبيبة.

دراهم فضية وفلوس نحاسية تعود إلى عهد السلطان بيبرس

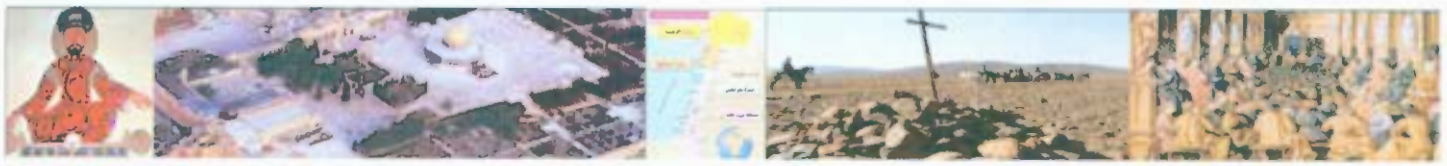

الغزو المغولي وسقوط بغداد سنة ٦٥٦ هـ ١٢٥٨ م

لم يكن سقوط بغداد (٦٥٦ هـ) ممكناً لولا خيانة الوزير ابن العلقمي، لأن القوى الخارجية تبقى محدودة التأثير ما لم تتعاون معها قوى عميلة من الداخل. والعالم الإسلامي يقف متفرجاً كأنما أصيب بالشلل التام.

إنه أمر عجيب تحار فيه العقول !!

ما الذي دهى المسلمين حتى ضاعوا وأضاعوا رمز وحدتهم السياسية. فكيف كان هذا الذي حدث؟ وما قصة خروج **المغول** إلى بلاد الإسلام والمسلمين؟ وكيف تهاوت الخلافة على أيديهم بهذه الصورة المهينة؟!

إن المؤرخ الكبير "ابن الأثير" حين أراد أن يسجل تلك الأحداث في كتابه "الكامل" تمنى أن يكون قد مات قبل أن يسمع عنها أو يراها، فيقول: "لقد بقيت عدة سنين مُعْرِضاً عن ذكر هذه الحادثة استعظاماً بها، كارهاً لذكرها، فأنا أقدم رِجْلاً وأؤخر أخرى، فمن الذي يسهل عليه أن يكتب نعي الإسلام والمسلمين، ومن الذي يهون عليه ذكر ذلك. فيا ليت أمي لم تلدني، ويا ليتني مت قبل هذا وكنت نسياً منسيّاً، إلا أني حثني جماعة من الأصدقاء على تسطيرها، وأنا متوقف، ثم رأيت أنَّ ترك ذلك لا يجدي نفعاً، فنقول: هذا الفعل يتضمن الحادثة العظمى والمصيبة الكبرى التي عقمت الأيام والليالي عن مثلها، عمت الخلائق، وخصت المسلمين، فلو قال قائل: إن العالم منذ خلق الله-سبحانه وتعالى- آدم إلى الآن لم يُبتلَ بمثلها كان صادقاً فإن التواريخ لم تتضمن ما يقاربها ولا ما يدانيها".

مر بنا خلال هذا **الأطلس** كيف كان الصليبيون يحتلون بلاد الشام، وكيف كان المجاهدون المسلمون قد أنزلوا بهم في عهد عماد الدين زنكي، ونور الدين محمود، وصلاح الدين الأيوبي هزائم ساحقة، ولولا ضعف المسلمين بعد موت صلاح الدين لكانت نهاية الصليبيين بالشام قد تحققت.. ولكن الصليبيين ظلوا يعانون لضعف البالغ ويصمدون رغم ذلك في مواجهة المسلمين حتى ظهرت قوة **المغول**. وتأكّد عداؤهم للإسلام وما أنزلوه بأهله من هزائم ومصائب في بلاد خراسان وفارس على أنقاض **دولة السلاجقة** هناك، فاجتمعت مصالح الفريقين الصليبيين والمغول في عداء المسلمين وحربهم، وبدأت الاتصالات بينهم لتنسيق الجهود في هذا الصراع.

وأعمل الصليبيون حيلهم الخبيثة، فعرضوا على التتار النصرانية، **فتنصَّر** منهم عدد كبير وجعلوا يزوجونهم من النصرانيات الحاقدات على الإسلام وأهله، فاشتعل الحقد الصليبي والبوذي في الهمجية الشرسة، وانطلقت جحافل التتار تدمر الخير في كل مكان. وكما صدرنا حديثنا عن الدور الخبيث الذي قام به **ابن العلقمي**، يقول ابن كثير في تاريخه: ثم عاد إلى بغداد وفي صحبته خوجه نصير الدين **الطوسي**، والوزير **ابن العلقمي** وغيرهما،

من هم المغول والتتار؟

قبائل تركية آسيوية كانت تسكن في الجزء الشرقي من "بلاد التوكستان" وما يليها شرقاً من "غرب بلاد الصين"، وهم بدو رعاة يدينون بالوثنية، ولا يؤمنون بالله ولا باليوم الآخر، ويبحثون عن الرزق أينما وجد، وينتقلون وراءه حيث كان، ويقتتلون من أجل الحصول عليه، تماماً كما هذا كان حال جالهم سواء بسواء.

وكانت بين "قبائل المغول" و"قبائل التتار" أواصر نسب وجوار، ولكن على الرغم من هذا، فإن محاولة الحصول على الرزق كانت تدفعهم إلى التنازع والتناحر والتقاتل، وتسفر المواجهة بينها عن انتصار "التتار" وهزيمة "المغول"، ويعود المغول فينتصرون على "التتار" ولكن الزعيم التتري "جنكيز خان" جمع شمل هذه القبائل لتصبح النقطة السوداء في التاريخ الإنساني بسبب ما أنزلوه به من الكوارث التي لم يحدث مثلها

والخليفة تحت الحوطة والمصادرة، فأحضر من دار الخلافة شيئاً كثيراً من الذهب والحلي والمصاغ والجواهر والأشياء النفيسة. وقد أشار أولئك الملأ من الرافضة وغيرهم من المنافقين على هولاكو أن لا يصالح الخليفة، وقال الوزير: متى وقع الصلح على المناصفة لا يستمر هذا إلا عاماً أو عامين ثم يعود الأمر إلى ما كان عليه قبل ذلك، وحسنوا له قتل الخليفة، فلما عاد **الخليفة** إلى السلطان **هولاكو** أمر بقتله، ويقال: **إن الذي أشار بقتله** الوزير ابن العلقمي، والمولى نصير الدين الطوسي، وكان النصير عند هولاكو قد استصحبه في خدمته لما فتح قلاع الالموت، وانتزعها من أيدي **الإسماعيلية**، وكان النصير وزيراً لشمس الشموس ولأبيه من قبله علاء الدين بن جلال الدين، وكانوا ينسبون إلى نزار بن المستنصر العبيدي، وانتخب هولاكو النصير ليكون في خدمته كالوزير المشير، فلما قدم هولاكو وتهيب من قتل الخليفة هون عليه الوزير ذلك فقتلوه رفساً، وهو في جوالق لئلا يقع على الأرض شيء من دمه، خافوا أن يؤخذ بثأره فيما قيل لهم، وقيل بل خنق، ويقال بل أغرق فالله أعلم، فباؤوا بإثمه وإثم من كان معه من سادات العلماء والقضاة والأكابر والرؤساء والأمراء وأولي الحل والعقد ببلاده ومالوا على البلد فقتلوا جميع من قدروا عليه من الرجال والنساء والولدان والمشايخ والكهول والشبان، ودخل كثير من الناس في الآبار وأماكن الحشوش، وقنى الوسخ، وكمنوا كذلك أياماً لا يظهرون، وكان الجماعة من الناس يجتمعون إلى الخانات ويغلقون عليهم الأبواب فتفتحها التتار إما بالكسر وإما بالنار، ثم يدخلون عليهم فيهربون منهم إلى أعالي الأمكنة فيقتلونهم بالأسلحة، حتى تجري الميازيب من الدماء في الأزقة، فإنا لله وإنا إليه راجعون. وكذلك في المساجد والجوامع والربط، **ولم ينج منهم أحد سوى أهل الذمة من اليهود والنصارى** ومن التجأ إليهم وإلى دار الوزير ابن العلقمي الرافضي وطائفة من التجار أخذوا لهم أماناً، بذلوا عليه أموالاً جزيلة حتى سلموا وسلمت أموالهم. وعادت بغداد بعد ما كانت آنس المدن كلها كأنها خراب ليس فيها إلا القليل من الناس، وهم في خوف وجوع وذلة وقلة، وكان الوزير ابن العلقمي قبل هذه الحادثة يجتهد في صرف الجيوش وإسقاط اسمهم من الديوان، فكانت العساكر في آخر أيام المستنصر قريباً من مائة ألف مقاتل، منهم من الأمراء من هو كالملوك الأكابر الأكاسر، فلم يزل يجتهد في تقليلهم إلى أن لم يبق سوى عشرة آلاف، ثم كاتب التتار وأطمعهم في أخذ البلاد، وسهل عليهم ذلك، وحكى لهم حقيقة الحال، وكشف لهم ضعف الرجال، وذلك كله طمعاً منه أن يزيل السنة بالكلية، وأن يظهر البدعة الرافضة وأن يقيم خليفة من الفاطميين، وأن يبيد العلماء والمفتيين، والله غالب على أمره، وقد رد كيده في نحره، وأذله بعد العزة القعساء، وجعله حوشكاشا للتتار بعد ما كان وزيراً للخلفاء. واكتسب إثم من قتل ببغداد من الرجال والنساء والاطفال، فالحكم لله العلي الكبير رب الارض والسماء. أ. هـ.

وهو التاريخ يعيد نفسه، فقد سقطت بغداد اليوم بخيانات الباطنيين أحفاد ابن العقمي، وليت الأمر وقف عند هذا الحد بل زاد واتسعت رقعته، حتى رأينا أعمالاً هوجاء وغوغاء، من تجنٍ على أهل السنة هناك، وقاموا بقتل جماعي للبعض منهم، وتهجير البعض الآخر، واتهام من يدافع عن أرضه وعرضه بالإرهاب ومن قاومهم استعانوا بالغرباء من المحتل الأمريكي والبريطاني على قتله. ولم يصدق أولئك خبراً، فيسارعون بقتل المسلمين هناك قتلاً عظيماً.

بغداد (عاصمة الخلافة الإسلامية) من الفضاء الخارجي

كتيبة من الجيش المغولي

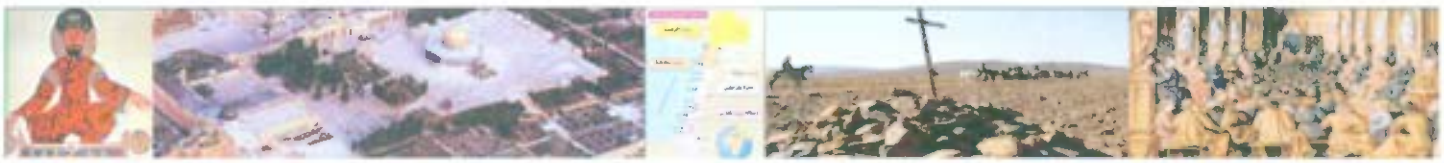

رأى المؤرخون في انتصار المماليك انتصاراً عالمياً: حيث عجزت الدولة الخُوارزمية، والدولة العباسية عن مقاومة الجيش المغولي أو مدافعته، وبعد انهيار اقوى النصرانية أمام الزحف المغولي على أجزاء من "روسيا" و"بولندا" و"هنغاريا" كانت "موقعة عين جالوت" سنة ٦٥٨ هـ والتي تعتبر بحق أول صدمة في الشرق هزت جيوش المول: فكانت درساً قوياً أمام اللئام عن طبيعة هذا الجيش الجديد: **أنهم المماليك**، والذين أعادوا للجيش الإسلامي هيبته ومن هنا كسبت سلطنة المماليك مركز الصدارة بين سلاطين المسلمين. كما استقامت مصر زعامة جديدة في العالم الإسلامي على أيدي هؤلاء الخليط من الأتراك والروم والأوروبيين والشراكسة. لذلك سيكون لهم الدور البارز في القضاء على بقية استعمرات الصليبية.

خوذة واقية : تعود إلى عهد السلطان الظاهر بيبرس

obeikan.com

أهم مصادر ومراجع الباب التاسع

١ - مجلة التاريخ العربي، أعداد مختلفة .

٢ - ستيفن رنسيمان . تاريخ الحروب الصليبية . ترجمة السيد الباز العريني . دار الثقافة . بيروت . ١٩٦٩م.

٣ - د . سعيد عبد الفتاح عاشور . الحركة الصليبية . مكتبة الأنجلو المصرية . القاهرة . ١٩٨٢م.

٤ - محمد مصطفى زياد . حملة لويس التاسع . المجلس الأعلى لرعاية الفنون والآداب . القاهرة ١٣٨١ هـ . ١٩٦١ م.

٥ - موسوعة ويكبيديا على الشبكة العنكبوتية .

٦ - سامي بن عبد الله المغلوث، الحملات الصليبية على المشرق الإسلامي في العصور الوسطى . دار الوراق، طبع ونشر ١٤١٩ هـ .

٧ - أحمد بن علي المقريزي . السلوك لمعرفة دول الملوك . تحقيق محمد مصطفى زيادة . القاهرة . ١٣٦٠ هـ: ١٩٤١.

٨ - أ . أحمد تمام، في ذكرى سقوط دمياط .

٩ - موقع GOOGEL من الشبكة العنكبوتية .

١٠ - جوزيف نسيم يوسف . العدوان الصليبي على مصر . دار الكتب الجامعية . الإسكندرية . ١٩٦٩م.

١١ - عز الدين أبي الحسن علي بن أبي الكرم محمد بن محمد ابن عبد الكريم عبد الواحد الشيباني، الكامل في التاريخ، دار المعرفة، الطبعة الأولى ١٤٢٢هـ/٢٠٠٢م.

١٢ - ابن كثير، الحافظ عماد الدين ابن أبي الفداء إسماعيل ابن عمر بن كثير القرشي الدمشقي، البداية والنهاية ، طبعات متعددة .

obeikandl.com